(٢) رثاء الآخر (الخنساء)

(١)

وفيه تتحرك الخنساء عبر ثلاثة مستويات ، مستوى الرؤية الكئيبة والرغبة فى إخبار نذير الصباح بكآبه التجربة وطبيعة معاناتها الإنسانية من جراء فَقْد أخويها ، ثم مستوى الألم والحزن الذي ترتب على السابق من ضخامة حجم الرُزء الذى حُقّ له أن يورثها بكاء لا ينتهى ، ثم ترجمة الحقيقة المرة فى فقدان الأخ موضوع المرثية كمبرر للمستويَيْن السابقين .

وعلي ما تحمله كلتا المقطوعتين من دلالات ضيق النفس الشعرى ، وكآبة النفس البشرية ، ومحاولة رصد التجربة فى إطار خاص من تلك السرعة الفنية الواضحة ، تظل دالة على تكدُّس هذا المعجم البكائى الذي تذيعه عنها الأبيات (٢ ، ٣، ٥) ففيها الرزء بفقدان الفتية ووراثة ذلك البكاء اللامتناهي ، وسماع النائحات ، وفقدان الأخ ، والتصريح بمعاودة البكاء وقد مزج بالحنين الدائم إلى الفقيد بشكل لا يبشر بإمكانية السلو أو النسيان .

ومع انتشار معجم البكاء وأصوات النواح ، ومع العجز عن التسلى و العزاء نجد التكرار المتعمد لتصوير ذلك البكاء مرة أخري فى البيت الخامس ، حين تتعجب الشاعرة من أمر من يلومها على بكائها علي أخ لو سبقته إلى الموت لاستراحت ، ولكان هو نفسه فريسه أحدٌ أنواع البكاء وأشدّها مرارة على نفوس البشر .

وتكاد الشاعرة تتوحَّد مع موضوع تجربتها من زاوية أخيها من ناحية ، ثم من زاوية الموت من ناحية أخرى ، وكأنها رأت الحياة وقد استحالت عَدَما ، ولم يبق أمامها إلا أن تتوحَّد حتى مع ذلك العدم ، فكان الموت أفضل لها من أن تعيش بعد فقيدها :

كصخر بن عمرو خير من قد علمته ... وكيف أرجي العيش ضلّ ضلاليـــا

ومع هذا التوحد الذى تتمناه الشاعرة ، تظل تردد تلك الأعلام القَبَلية لعلها تجد بقية من عزاء من خلال بقايا شريط الذكريات أيضا ، فتذكر اتساع مكانة أخيها بين تلك الأعلام البارزة فى قيس ، وزيد ، وعامر ، وغسان (٦) ، وكأنها من خلال تلك الصيغ راحت تفاخر بالماضى ، ساعية إلى تأبين أخيها من خلاله ، فى مقابل ذلك الاستسلام الحتمى للموت، والانهزام أمام قدريته مما يدخل ضمن النسيج العام لفن المرثية فى صورتها الإنسانية المطلقة .